الليل في الشعر الجاهلي

د. باديس فوغالي

المركز الجامعي- أم البواقي

يشكل إحساس الشاعر الجاهلي بالليل محورا مفصليا عبر مسار تجربته الشعرية، بما يسترفده من استقطاب لمختلف الموضوعات التي تشغل باله في حياته، لما له من تأثير في وجدانه وإحساسه بمشكلات عصره .

وإذا كان الإنسان منذ الخلق الأول يتخذ من الليل ملاذا تهدأ فيه أعصابه، ويستجمع في شموله قوته بالتأمل والتفكير في انشغالاته، ليستعيد نشاطه، ويحقق توازنه النفسي والاجتماعي،فإن الشاعر بفضل نظرته المتميزة لهذه الانشغالات ـ والتي قد تتجاوز المستوى الوجداني إلى مستويات أخرى تلامس مشكلات عصره ـ يتعامل مع الليل كظاهرة زمنية وجودية وفق رؤية شاملة يتمازج في استيعابها الهم الداخلي بالهموم الخارجية.

ومن ثم يصير الليل لدى الشاعر الجاهلي هاجسا مركزيا بسبب الظلام الدامس الذي يستر الأشياء،ويجعل المرء عديم الجدوى، إذ يشله عن الحركة التي يعتاد ممارستها في النهار، ويدخله في دوامة من القلق والتوتر، إن كان هناك ما يسبب له هذا القلق .

وإذا كان الشاعر يتميز عن سائر الخلق البشري بإحساسه المفرط،ورؤيته الاستشرافية، فإنه ولا ريب يتفاعل مع محيطه بوعي فلسفي وجمالي في استقبال الليل واستيعاب زمنه،وتحويل لحظاته بعد

اختزال تفاصيله إلى موقف ينتج في ضوئه خلاصة تجربته الوجودية،مما يتيح له التفاعل مع المحيط إيجابا وسلبا.

إن الزمن الليلي - في حقيقة الأمر- زمن ميت بحكم أن الأنشطة الاجتماعية التي يعتاد المرء ممارستها تتوقف في غمرته، وفي ظل إحساس الشاعر الجاهلي بلا جدوى هذا الزمن في البيئة العربية القديمة،فإنه كان يهتم لهذا الأمر سواء تعلق ذلك بتجربته الخاصة، أو بتجربة المجتمع القبلي من حوله،ولذلك عبر في العديد من المواقف عن عجزه أمام قسوة الليل وشراسته.

إذ نلفيه يعمد إلى تصويره صورا شتى،تتباين من موقف إلى آخر حسب اللحظة الشعرية الحاضرة.

من تلك الصور، ما شكلته عدسة امرئ القيس،إذ صاغ تجربته مع الليل مشدودا بالتوتر المتدرج الذي يبلغ منتهاه، والذي يشبه التصعيد الدرامي للحالة النفسية التي يكون عليها المرء في مشهد الخوف والرهبة، حيث تبدأ وطأة الليل مع الشاعر متدرجة من البساطة إلى التعقيد، فتنتقل الصورة الليلية من جزئية مشهد تلاطم الأمواج الهائلة،والاكتساح العام لمساحة الرؤية إلى الوقوع تحت جبروت قوته وسحقه،وقد مثله بالجمل العملاق الذي ينوء عليه بكلكله،فتتبدد أمام ناظريه أي مساحة للنجاة. يقول في تمثل هذه الصورة :

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلـــبه وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل

كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل [1]

إن إحساس الشاعر بوطأة الهموم ومكدرات الحياة جعله يصور الليل (بمثل هذا التصوير الفني الذي يوحي بالشعور المتوتر،ولذلك يصبح الليل شيئا جديدا يمتلك أوصافا جديدة،استطاع الشاعر أن يرسمها من خلال قدرته على إبداع صورة جديدة منحها للشيء الموصوف الذي تحدث عنه،ويتضمن هذا التصوير تقريرا نفسيا،وإن مادة الصور لم تكن شيئا بعيدا، وإنما جاءت مستمدة من البيئة التي يتعامل معها الشاعر في كل لحظة من لحظات حياته) [2] .

فالليل في هذا السياق صورة (احتمالية وخيالية لا تعكس الواقع وتبدع عالما فنيا رمزيا يعيد صياغة ذلك الواقع ويجلو خفاياه) [3] .

إضافة إلى استفتاحه المشهد بواو" رب" الذي يعبر عن الندرة والتميز،إذ أن الليل الموصوف في اللوحة ليس ليلا مكررا في الذاكرة يعيش لحظاته الشاعر بتعاقب،إنما هو ليل استثنائي يتجلى في مخياله.

إن الزمن الليلي الذي يقصده الشاعر هو الزمن المنتج على مستوى المخيلة،لذلك لا يرتبط بمظاهر البيئة الصحراوية المعتادة فحسب،بل يتعداها إلى صورة هيجان البحر في أعالي المحيطات، فيشبهه في قوته

---

[1] - امرؤ القيس / الديوان .ت حنا الفاخوري.دار الجيل.ط1 .بيروت . ص 42، 43..

وانظر :أحمد أمين الشنقيطي، شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها،ت،ش،محمد الفاضلي،المكتبة العصرية،بيروت،ط1، 1998 ، .ص 33، 34.

[2] - موسى سامح ربابعية / قضية الخيال في الشعر الجاهلي . مجلة جامعة الملك سعود . المجلد 6،الآداب 1994، ص 565.

[3] - ريتا عوض / بنية القصيدة الجاهلية . الصورة الشعرية لدى امرئ القيس .دار الآداب،بيروت،ط1، 1992، ص 194.

وقدرته على تعتيم الرؤية وسيطرته الشاملة على كل ما يمكن أن يلتقطه البصر بأمواج البحر الهائجة،تلك الأمواج التي لا تشاهد إلا في أعالي البحار،والشاعر كما هو معلوم ليس بحارا،فكيف له أن يتمثل هذا المشهد وهو يقيم في جنبات شبه الجزيرة العربية لولا قدرته الإبداعية على التخيل، وكذا استيعاب تجلياته، واختزاله إلى صورة فنية تحتمل مختلف التأويلات.

مع الإشارة إلى أن هذه الصورة قد توسطت مشهدين يستعرضان مدى سعادة الشاعر،ففي الصورة القبلية سرد جانبا من مغامراته التي عاش تفاصيلها مع مختلف النساء اللاتي عرفهن في حياته، وفي الصورة البعدية تحدث عن احتفائه بقدوم الصبح، وخروجه إلى الصيد.

إنّ الليل ـ حسب بناء المعلقة ـ همزة وصل بين محطتين أثيرتين إلى قلب الشاعر، هما قضاء الوطر من النساء ثم الاستمتاع بالخروج إلى الصيد، علما أن كلتا المحطتين تشير إلى الفحولة والرجولة في أبعادهما.

ولعل توسط الليل هاذين المحطتين يرمي إلى ركون الشاعر في وقفة تأمل واسترخاء إلي تفريغ ما تخزنه مشاعره من هموم ومحن في محاورة ذاتية، الغاية منها ركون الشاعر إلى نفسه، واستقراء أغوار شعوره العميق لمجابهة ما يستهدف كيانه ؛ وذلك بالتسلح بقوة الصبر والتحدي المستمدة من تمسكه القوي والدائم بالحياة في سيولتها وتدفقها ، وبخاصة إذا تم انكشاف هذه الرؤية مع قدوم الصبح وخروجه في رحلة تسلية إلى الصيد.

تتضح هذه الرؤية أكثر عندما يتحول الليل كائنا يرتبط بهموم الشاعر، ويشكل في لحظة من لحظات حياته مخاوفه التي تحتمل عدم التبدد حتى بمجيء الصبح. ومن ثم يصير الليل لدى الشاعر هاجسا مركزيا

يتصف بالاستمرار والتواصل في حياته . وذلك أن شعور الشاعر بثقل حدة الليل ليس مرده الظاهرة الزمنية الحقيقية نفسها بل هو شعور كامن في أعماقه، ولذلك لا يفرح الشاعر بانقشاع الظلمة وقدوم الصبح لأن الحزن والقلق يسكنانه من الداخل ، ولا يقتصران على الظاهرة الزمنية في واقعها الطبيعي .

لا شك أن متصفح ديوان الشعر الجاهلي يجد توظيف الليل أخصب ما يكون بارزا في تجربة امرئ القيس،إذ نلفي توظيفه عنده يتنوع بحسب اللحظة الشعرية،ويتخذ مظاهر متعددة ومتنوعة حسب ما يمليه عليه الموقف الشعوري في تلك اللحظة.

لقد تطاول الليل على الشاعر في "الأثمد" حين غاص خلاله في نوم عميق تاركين إياه فريسة للقلق والحيرة بسبب النبأ الشؤم الذي حمله إليه ابن عمه " أبو الأسود " ، والمتمثل في مصرع والده من قبل بني أسد ، إذ يقول مخاطبا نفسه في شبه محاورة ذاتية:

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخلي ولم ترقد
وبات، وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمد
وذلك من نبأ جاءني وأنبئته عن أبي الأسود[4]

لقد حدد الشاعر في هذا المقطع المكان الذي كان يقيم فيه رفقة أصحابه، وهو " الأثمد"، مما يؤكد واقعية الحدث،ويكسبه صفة الالتزام بالصدق الفني والواقعي، فواقعة مقتل أبيه فتحت شرخا عميقا في وجدانه،وكلفته تبعة ظل ينوء بحملها طول حياته. ولذا نلفي الليل لدى الشاعر قد اكتسى مسحة مأساوية،تكررت عبر مسار تجربته الشعرية في أواخر حياته مقرونة بمظاهر الحزن والغم .

---

[4] - امرؤ القيس / الديوان . ص 240، 241.

وفي مقطع آخر من قصيدة أخرى يصور مدى حجم المأساة التي ألمت به،إذ من فرط الصدمة،ووقع الدهشة يكذب النبأ الذي بلغ به،ويشبه فحواه بالأمر الذي تتزعزع لوقعه الجبال الشوامخ .

يقول في هذا الموقف،وقد جن عليه الليل ،ولاح في الأفق لمعان البرق:

عجبت (*) لبرق بليل أهل — يضيء سناه بأعلى الجبل
أتاني حديث فكذبته — بأمر تزعزع منه القلل
لمقتل بني أسد ربها — ألا كل شيء سواه جلل [5]

من المشاهد التي شكلت محورا مركزيا لأرق الشاعر كذلك هذه الصورة الليلية :التي كابد تفاصيلها عبر ليل بهيم، يومض في ثناياه برق خاطف، يكشف لمعانه عن صور جزئية للسحاب المحقن بالماء،إذ تراءت له قطعه المتفرقة كالخيل البلق،سرعان ما تفرعت عن هذه الصورة صورة جزئية أخرى تبرز مشهدا مروعا للقتال،والخيل تتزاحم في كر وفر،وقد ملأت ساحة الوغى بصولاتها وجولاتها .

قد تكون هذه الصورة من وحي خيال الشاعر، شكلت بسبب بلوغ نشوة الخمر رأس الشاعر، لكن طابعها الحماسي القريب من مشاهد القتال،يشير حسب تصوري إلى ما كان يراود الشاعر من هم لتنفيذ أمنيته، وهي الإطاحة بأعدائه،واسترداد مجد أبيه الضائع.

يقول فيها مخاطبا صاحبيه اللذين رافقاه في رحلة البحث عن المساعدة:

يا صاحبي إذا ما خفتما غرضي — فعللا ني، فإن الليل قد طالا

(*) - في رواية : أرقت لبرق بليل أهل . مصطفى السقا . مختار الشعر الجاهلي ،ج1. ص4.

(5) - امرؤ القيس/ الديوان ص 227.

هل تأرقان لبرق بت أرقبـــــه كما تكشف عنها البلق إجلالا
تحمي الفلاء، وتنفى عن مرابطها جيلا،بمعترك يعدون أرسالا [6]

من خلال المشاهد السابقة يتضح أن "امرأ القيس" قد اكتسب بعدا حماسيا بسبب المحنة التي ألمت به، ولذلك نتلمس عبر صوره الليلية المختلفة ملمح التجلد،والتسلح بالحزم.

إذ صار الليل لديه ليس ليلا للاسترخاء والاستمتاع،إنما تحول إلى فضاء زمني للتفكير والتدبير يتجلى في ثناياه (القلق الذي يعانيه كفنان،وما يعرض له من غرابة الأطوار وتلون اللمحات)[7].

فقد عاش في بداية حياته لاهيا مستهترا غير عابئ بما يدور حوله،ثم سرعان ما تحمل تبعة الأخذ بالثأر، وهو لم يتجاوز الأربعين من عمره مما جعله ينظر إلى الليل نظرة فيها الكثير من السوداوية والتشاؤم. فليله عميق الأثر والعدوى،بحيث يمكن لأي متلق ذاق مرارة مداهمة الليل لأحلامه أن يشعر الشعور نفسه الذي صوره الشاعر في العديد من اللوحات.

إن ليل امرئ القيس ساحق طاحن لكل بادرة أمل يمكن أن تتسع في كيانه،وهو من شدة بأسه وإحساسه العميق بما يعتريه من هموم لا يترقب جديدا من ضوء النهار،بل يرى أن طلوع الفجر عليه لن يزيده إلا كدرا. وقد يحمل ضوء الصبح ألوانا من الهموم أقسى من هموم الليل فيتراجع متقهقرا يلوذ {به} من جديد [8]، كما عبر الطاهر أحمد مكي في معرض حديثه عن هموم الشاعر.

---

[6] - السابق.ص 278

[7] - الطاهر أحمد مكي/امرؤ القيس حياته وشعره.ط9، مكتبة الآدابو القاهرة 2002،ص 240

[8] - نفسه.ص 237.

لقد كان وصف الشاعر لليل وصفا غير عادي، إذ صوره مثل أمواج البحر التي غطت مساحة رؤيته البصرية.

إنّ الليل في تصور الشاعر ليس ليلا رومنتيا،أو ليلا عاطفيا، أو حتى ليلا عاديا إنما هو ليل طويل زمنيا ومعنويا، ليل تحتشد فيه الهموم والابتلاءات، ويعج بأحاسيس اليأس

فهو ليل سوداوي يتصف بكل معاني السوداوية.ومن ثم نلحظ أن ليل "امرئ القيس" أزلي في وطأته وقساوته.

أما " سويد بن أبي كاهل اليشكري " فقد شخص عبر تجربة وطأة الليل على وجدانه حالته النفسية بعد أن كابد تجربة العشق،وألم الوجد،إذ قضى ليله يقظا يرقب النجوم التي أبت إلا أن تزيد انتشارا،وكلما ظن أن الليل آيل للأفول عطف دورته من جديد في رحلة دائمة؛أشبه ما تكون حالة الشاعر في هذا الجو بحالة "سيزيف" . يقول في تصوير هذه الحالة:

وكذاك الحب ما أشجعه — يركب الهول،ويعصي من وزع
فأبيت الليل ما أرقـــده — وبعيني إذا نجــــم طلـــع
وإذا ما قلت ليل قد مضى — عطف الأول منه فرجـــــع
يسحب الليل نجومه ضلعا — فتواليها بطيئات التبـــــع
ويزجيها على إبطائها — مغرب اللون إذا اللون انقشع [9]

إن ليل "سويد" يتصف في هذه الصورة بالحيوية والحركة،إذ يشبه الشاعر نجومه المتكاثرة في الفضاء البهيم بكوكبة من الخيل عقدت في نواصيها غرر بيض،وكلما تحركت هذه الكوكبة في التئام،أوفي انتشار لمعت الغرر البيض تماما كلمعان النجوم،مما يوحي أن ليل الشاعر

---

[9] - المفضل الضبي/ المفضليات .ت،ش،أحمد محمد شاكر،وعبد السلام هارون،ط4، دار المعارف بمصر، المفضلية 40. ص 192.

دائم النشاط لا يصيبه الفتور،نجومه لماعة شديدة البريق في وسط الدجى الحالك،الأمر الذي جعل الشاعر يستسلم لحالته،وهو يرقب بوادر الصبح في شيء من الأمل والرجاء.

وإذا كانت وطأة الليل على امرئ القيس سببها المحنة التي ألمّت به،فإن حدته على" سويد" مردها ما ابتلي به من داء الحب والشجن،ولذلك نتلمس تباين حالة الشاعرين النفسية في درجة الاستجابة للمثير.

إذ الأول يتلهف لاستقبال يوم جديد لاستئناف رحلته بحثا عمن يمكن أن يساعده على استرداد مجد أبيه الضائع،وأما الثاني فيرقب الصبح طمعا في لقاء حبيبته.ومهما اختلفت الغاية من ذلك،فإن ثمة جامعا مشتركا يوحد بين إحساس الشاعرين بحدة الليل،ورغبتهما في أن يظل كلاهما مرتبطا بغايته.

الأعشى بدوره يتمثل الإحساس نفسه،من خلال مقطع لصورة ليلية يتوسط صورة سردية تتناول بالتفصيل هيامه ب" قتيلة "،التي هجرته وأنكرته بعد عشرة طويلة،لتستبدله بفتى آخر ثري،شديد السخاء، قد تجده في انتظارها في المكان الذي اختارته قبيلتها للاستقرار.

يرسم الشاعر معالم هذه الليلة،وقد امضاها ساهدا بسبب ما آلت إليه حالته النفسية،فيقول وقد تمكن منه الهيام:

فبت بليلة لانوم فيها	**أكابدها وأصحابي رقود**
كأن نجومها ربطت بصخر	**وأمراس تدور وتستزيد**
إذا ما قلت حان لها أفول	**تصعدت الثريا والسعود**
فلأيا ما أفلن مخويات	**خمود النار وأرفض العمود**

أصاح ترى ضعائن باكرات عليها العبقرية والنجود [10]

واضح في ضوء المشهد السابق أن الأعشى قد أذاب ليلته مؤرقا يعاني ما أصابه من هم جراء رحيل حبيبته إلى حيث اختار قومها الإقامة والاستقرار،إذ أن وضعها الاجتماعي مرهون بإرادة قبيلتها التي قررت الرحيل إلى مكان يتوفر على سبل العيش بما يتيحه من أسباب وسائل الحياة الأفضل،ولأن ظروف الشاعر كذلك تشبه ظروف حبيبته،إذ لا يستطيع التملص من وشائج الارتباط بقومه،فإنه واستجابة للعرف القبلي السائد آنذاك سوف يركن بدوره إلى احساسه صامدا تحت هزات الوجدان دون أن يجرأ على ملاحقتها،واقتفاء أثرها للاسعاد بالارتباط الأبدي بها والذي قد لايتم في الغالب الأعم.

إن هذا الركون إلى الذات قد جعل الشاعر يتحسس الزمن بكل كيانه،ويستسلم لهواجسه وتهيآته صابرا متجلدا،وما عساه أن يفعل أمام قوة الإرادة المسلطة عليه من قبل العشيرة التي أمر كبير القوم فيها الارتحال إلى حيث لا يعلم .

علما أن ظاهرة الرحيل عند العرب قديما كان يحكمها إلى جانب العامل الاقتصادي المفروض بسبب الجفاف والبحث عن موارد الماء والكلأ سبب آخر يتمثل في الرغبة الدائمة على مقاومة السكونية والثبات للنزوع نحو البحث عن التجدد،ومواصلة يوميات العمر في فضاء آخر مغاير للفضاء الذي شمل القبيلة،عادة ما يكون هذا الفضاء الجديد خصبا لممارسة الحياة الاجتماعية القائمةعلىعلاقات المصاهرة وغيرها،إذ تنشأ بين الفتيان والفتيات علاقات حب تثمر بالمصاهرة وتوطيد الصلة بين القبائل المتجاورة.

---

[10] - الأعشى الكبير (ميمون بن قيس) / الديوان .ش،ت،مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية،بيروت،1987ص 111

في ظل هذه الحقيقة الاجتماعية الماثلة كان الشاعر على وعي بما ينتظر محبوبته من آفاق مليئة بالمسرات،وهو الأمر الذي يعمق مأساته أكثر،ويشعره بحدة الليل،ومن ثم لايجد من بد سوى التأمل العميق في فضاء الليل متتبعا مواقع النجوم وهي تتحرك في السماء،فإذا ما ظن أن الليل قد أوشك على الزوال طلعت عليه الثريا إيذانا بعدم أفوله،وهكذا تستمر معاناة الشاعر حتى ظن أنّ الصبح الذي ظل يرقب طلوعه لا يمكن أن يأتيه بجديد، بل قد يزيده اكتآبا،نظرا لتأهب قوم حبيبته للرحيل،فالليل إذن بظلامه،وحشته أهون عليه من رؤية الموكب وقد شد الرحال لمغادرة الديار.

إن الإحساس الذي يغمر كيان الشاعر في هذه الليلة إحساس موجع يعمل على تمديد عزلته الداخلية في مواجهة مصيره المحتوم،بل قد يشعره بعمق المرارة،لأن عزلته سوف تطول وفراغه النفسي سوف يتسع،مادام من كان يلقي بظلال السعادة والحبور على مشارف قلبه قد تبخر في غمرة الطوارئ التي عصفت بالقبيلة والمكان نفسه.

لهذا نجد الشاعر في مقطع آخر من قصيدة أخرى يتمادى في رسم هذا الذهول،فيعمد في تصوير تفاضلي بينه،وبين رفقائه إلى إبراز فارق الإحساس بينهما في استقبال الليل. ففي الوقت الذي خلد فيه رفاقه إلى نوم هادئ بسبب خلو بالهم من الهموم والمكدرات،قضى هو ليلته صاحيا من فرط الوجد،إذ أمسى أسيرا لحب من هجرته وصيره حبه الفياض لها أسيرا مكبلا بأغلال الماضي،واللحظة الراهنة .

يقول متمثلا هذا الإحساس:

نام الخلي،وبت الليل مرتفقـــا أرعى النجوم،عميدا،مثبتا أرقا
أسهو لهمي ودائي،فهي تسهرني بانت بقلبي،وأمسى عندها غلقا [11]

---

[11] - الأعشى الكبير /شرح الديوان .م س .ص 217.

إن معاناة الشاعر كما هو واضح مستمرة نتيجة ارتباطه الشديد بماضيه،إذ أضحى ملكا لعواطف محبوبته التي لم تخفف معاناته بمبادلته حبا بحب فحسب، بل رحلت مع قومها غير عابئة بحاله.

ولعل الملاحظة التي أبداها" ابراهيم عبد الرحمان " [12] بشان حضور المرأة في القصيدة الجاهلية إذ عدها مركزا للقصيدة ، تتفرغ عنها بقية الأغراض،تؤكد جلاء الهاجس المحوري لدى الشاعر الجاهلي،إذ غالبا ما تنطلق تجربته من الحديث عن المرأة،وما يتصل بعالمها بصورة مباشرة،أو غير مباشرة ، لتتناول موضوعات أخر.

إلى جانب الأعشى نلفي "المرقش" كذلك يعيش تجربة الجفى، حين فارقته حبيبته. إذ يقول وقد غط أصحابه في نوم عميق بينما هجر النوم أجفانه، عندما لاح طيف خليلته" سلمى" وقد أرقه أيما تأرق:

سرى ليلا خيال من سليمى	**فأرقني وأصحابي هجـــود**
فبت أدير أمري كل حـــال	**وأرقب أهلها وهم بعيـــد**
على أن قد سمى طرفي لنار	**يشب لها بذي الأرطى وقود**
حواليها مها جم التراقـــي	**وأرآم وغزلان رقـــــود**
نواعم لاتعالج بؤس عيش	**أوانس لاتراح ولاتـــــرود**
سكن ببلدة وسكنت أخرى	**وقطعت المواثق والعهود** [13]

لقد داهم الشاعر طيف ليلى دون استئذان،وهو في الكهف يعاني العزلة والغربة والخوف فطار النوم من جفنيه،تاركا إياه في سهاد حاد يدير أمره حالا على حال،عله يجد في ذلك تسلية تلهيه ولو لوقت مما هو فيه من أرق وقلق . وفيما كان يعاني غربة نفسية قاتلة،إذ لاح على

---

[12] - إبراهيم عبد الرحمن / من أصول الشعر العربي القديم الأغراض والموسيقى . م س. ص 26.

[13] المفضليات . المفضلية 46. ص223، 224..

مرأى بصره مشهد تحلق قوم حبيبته حول النار يتدفئون،وليلى عن قرب تتشابك مع صويحباتها في سمر غامر نجيا،وهو المشهد الذي عمل على تنامي التصعيد الوجداني لدى الشاعر إزاء الليل والوحدة والقلق،فالشاعر لايعاني الفرقة وألم الوجد فحسب،إنما يعاني كذلك آلام الغربة والوحدة.

إن هذه اللوحة تنطوي دلاليا على مشهدين متقاطبين:

. مشهد يفيض بالأنس والابتهاج،ويتمثل في سمر قوم " ليلى " حول موقد النار، وبمكان غير بعيد عن هذه النار تتسامر" ليلى "،وقلبها خال من الهم، وكأن استحضار المشهد المنعوت بالدفء الجسدي،والنفسي،ينتقل على أمواج الأثير،وعبر التحسس الوجداني إلى كيان الشاعر،فيشعر حينئذ بالأنس ولو إلى حين،ومن ثم يتخلص من برودة المكان ووحشة الانفراد،وكم يزيد هذا الإحساس توهجا حين يزدان المشهد المهيأ في مخيلة الشاعر بحسناوات كأنهن المهى وقد ظهرت عليهن ملامح الترف والسيادة.

. ومشهد يعكس مظاهر الاغتراب والوحدة القاسية،التي يعانيها الشاعر على مستوى الواقع لأن المشهد الأول قد تمثله الشاعر على مستوى المخيلة . كما أشرت . في حين يتحسس في هذا المشهد آلام الغربة في اللحظة الراهنة، ولذلك يتعمق شرخ القلق لديه.

وفي واقع الأمر إنّ أغلب الشعراء الجاهليين الذين اتخذوا من الليل سبيلا للتعبير عن ضجرهم للحياة نتيجة أكدار عكرت صفو هذه الحياة في لحظة ما من لحظات أعمارهم، جربوا بصورة أو بأخرى مرارة العزلة والخواء النفسي.

وقد تلمسنا مظاهر هذا التحسس عند بعض الشعراء ابتداء من امرئ القيس،الذي جرب حالة من الاختناق والمحاصرة عندما داهمه

الليل،وأرخى أثقاله على أنفاسه،مرورا ب" سويد " الذي تطاول ليله وتباطأ،بحيث جعله يعيش لحظات عسيرة من التذمر والقلق العميقين،إلى" لأعشى" الذي قضى ليله بغير نعاس ترقبا لصبح كان لا يتوسم فيه أي تغيير،وانتهاء بالنابغة الذي فاض قلبه بالروع والخوف،فقضى ليله مهموما يقلب الوضع الذي آل إليه بسبب غضب النعمان بن المنذر عليه، وتوعده له بالعقاب . يصف هذه الحيرة، فيقول:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني وتلك التي أهتم منها ، وأنصب
فبت كأن العائدات فرشنني هراسا به يعلى فراشي ويقشب

إلى أن يقول:

فلا تتركني بالوعيد ، كأنني إلى الناس مطلي به القار أجرب [14]

إنّ ما يلاحظ في هذا المقام هوأن ليل النابغة أقل قسوة من ليل امرئ القيس، وسويد، والأعشى لكون النابغة حاول النوم في فراش وثير.غير أن هذا الفراش قد تحول من كثرة همومه، وخشية تعرضه للعقاب إلى رزم من الأشواك توخز جسمه ، وتزرع الألم في أعضائه.

لذلك يبدو تصوير النابغة لليله مبالغا فيه،يكتسي طابع التكلف،لأن الأمر محصورا في خوف خارجي، أي أن مصدر القلق لديه أتى من الخارج، وتشكل من الهواجس التي أحاطت به حين علم بغضب النعمان عليه، بخلاف مصدر القلق لدى الشعراء المذكورين، والذي كان داخليا وصف بالمسيطر والمهيمن على وجدانهم .

المعاناة إذن تتفاوت من شاعر لآخر، وتتجاوز في درجة الاستقبال والترجمة إلى إحساس صادق يشي بالتعاسة والانسحاق. ولعل أشدها

---

[14] - النابغة الذبياني / الديوان . ت ش .كرم البستاني.دار صادر.بيروت .ص 17، 18.

على وجدان الشاعر ما يترتب عنها من فراغ نفسي وغربة داخلية تجعل الشاعر يحيا وكأنه لايحيا.

على الرغم من تفاوت درجة استقبال الشعراء الجاهليين لوطأة الليل على وجدانهم، نجد ثمة جامعا مشتركا يوحد بينهم في درجة الإحساس بعدم الجدوى إزاء ليل طويل وثقيل ينغص حياتهم ويكدر صفوها، مع تفاوت نسبي بينهم في تحويل هذه الحالة إلى واقع شعري، والتقائهم في بؤرة الإحساس الداخلي الذي اعتمل نتيجة (عدم قدرة {الشاعر الجاهلي} على التفاعل، والانسجام مع المحيط الذي ينتمي إليه جزئيا أوكليا، ويهيمن عليه دائما شعور شفاف بالحزن الذي يختلط بالألم والملل والضجر..) [15].

حتى أننا نلفي" النابغة " قد اتخذ مما شعر به من خطر واشك،وهلاك قادم أينما حل وارتحل سببا فنيا في بلورة إحساسه،وذلك في مقدمة ليلية قبل أن يتخلص إلى مدح "عمر بن الحارث"،الذي أكرمه وجعله نديما من ندمائه،بعد أن نقم عليه النعمان أبو قابوس وأهدر دمه. يقول في هذا المطلع:

كليني لهمّ،يا أميمة، ناصب وليل أقاسيه ،بطيء الكواكب

تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يرعى النجوم بآيب

وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب[16]

---

[15] - عبد الله خلف العساف / الصورة الفنية لحقول التراجيدي في الشعر الجاهلي . مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها .المجلد 13 . العدد 21. ديسمبر 2000. ص 1292.

[16] - النابغة الذبياني/ الديوان. م س .ص 9.

وآنظر : الأعلم الشنتمري/ الشعار الشعراء الستة الجاهليين.القسم الأول . منشورات دار الآفاق الحديثة ،بيروت،ط2، .ص 202.

لا شك أن الشاعر قد عاش وجدانيا حالة من الرعب جعلته يستهل مدحه الذي قد لا يخرجه من الورطة التي هوفيها بهذا المقطع،وذلك استجابة لداع داخلي نافذ في أغواره النفسية أسهم في إبراز حالة الرعب التي تقظ مظجعه، وتغرقه في غمغمة من النصب والترقب،تحسبا لخطر قد يداهمه من حيث لا يحتسب.

وقد تجلت هذه الحالة في تصويره الخاص لليل،إذ انتقل من تشبيهه الليل بالحزن جاعلا الحزن ليلا، أي أنه تخطى الحدود التي تفصل بين الهموم والليل،ووحد بينهما، فأصبح الليل حزنا والحزن ليلا.لذلك يقول أنه(يقاسي ليلا)،ولم يقل أنه(يقاسي حزنا)،والفرق بين العبارتين شاسع،لأن مقاساة الحزن هي معنى نثري منثور،أما مقاساة الليل فتعبير وجداني .

انتقلت به الصورة من كونها شعورا في النفس، لتصبح صورة في العين، وبذلك صار الشاعر يبصر الحزن بعينيه بدل تحسسه بوجدانه،وهو تشخيص متمثل انتقل بصورة الحزن من المستوى التجريدي الغائب إلى المستوى المادي الحاضر،وكأن الليل مقترن بالحزن،فكلما قدم تدافعت معه الأحزان والهموم.

علاوة على التيتم والإحساس بالوجد، وكذا الشعور الدائم بالخوف لسبب من الأسباب، إننا نجد الشاعر الجاهلي كان يلجأ حين تداهمه الهموم إلى الليل للتعبير عن أحزانه مستثمرا إياه فنيا وموضوعيا لسرد تفاصيل الحزن،الذي يشعر به.

وقد وظف هذا التشكيل " صخر الغي" في رثاء ابنه " تليدا " لما اختطفه الموت على حين غرة وفي ذلك يقول:

أرقت فبت لم أذق المناما وليلي لا أحسن له انصراما

لعمرك والمنايا غالبات وما تغني التميمات الحماما

لقد أجرى لمصرعه تليد وساقته المنية من أذامـــا

إلى جدث بجنب الجوّ راس به ما حل ثم به ما أقامـــا

أرى الأيام لاتبقي كريما ولا العصم الأوابد والنعاما[17]

إن الذي أرق الشاعر في هذا المقام الجلل ليس الفناء الذي كان يهدد كل مخلوق فحسب، لأنه كان يؤمن بحقيقة المنية التي (لاتبقي كريما)- كما يقول - ولو اعتصم بأعالي القمم .

إنما الذي أبعد النوم عن جفنيه،وتركه يتلظى في حمم من الهموم هو المآل الذي آل إليه،والطريقة المأساوية التي انتهت بها حياة ابنه،حيث دفن حيا في حفرة يفنيه الموت ببطء شديد.

الأمر الذي حفر في دهاليز نفسه شرخا عظيما ترجم في مقطع آخر من قصيدة أخرى،حيث يضعنا في مشهد محزن، و مثير،يفاضل فيه بين إحساسه الممزق بسبب فقدان ابنه البار،ذلك الفتى الشهم المتدلل،وإحساس حمامة فقدت فرخها الوحيد،كانت تصدر هذيلا موجعا،للتخفيف عن كربتها، في حين لم يجد الشاعر من متنفس سوى الانطواء إلى ذاته وكظم حزن . ولعل الشاعر قد وجد في هذه المشاركة الوجدانية ما ينفس عنه ألم الفراق ولو إلى حين،مادام فيه من يتجرع مرارة الحزن مثله،وهي اشارة تحمل أبعاد التأسي.

يقول في هذا المشهد الإنساني الرائع،وقد خلد كل الأنام إلى نومهم في وقفة توحد مع الأسى والحزن:

وما إن صوت نائحة بليل بسبلل لاتنام مع الهجود

تجهنا غاديين فساءلتني بواحدها وأسأل عن تليدي [18]

---

(17) - ديوان الهذليين ج2.الدار القومية للطباعة والنشر،القاهرة 1956. . ص 62 . 63.

(18) - نفسه . ص 67.

لقد تفاوت تعبير شعراء الجاهلية عن الليل تفاوت تجاربهم الفردية. فإذا كان الليل عند الشعراء الذين استشهدنا ببعض مواقفهم التي تمثلوه فيها وجعلوه مصدرا للقلق والتوتر، يشكون من خلاله ما ينتابهم من كوادر تحت تأثير الهموم التي تجتاح كيانهم لداع من الدواعي، فإن الليل عند الشعراء الصعاليك يختلف بحكم وضعهم الاجتماعي الخاص،ونزوعهم الفردي الذي يرى في الليل أنيسا يرافق عزلتهم بسبب انفصالهم عن قبائلهم.

مثال ذلك أن الليل يصير عند الشنفرى فرصة سانحة للفتك بخصومه، ووقت مناسب لمباغتة أعدائه والسطو على ممتلكاتهم.

يقول في وقفة من وقفاته المتعددة التي اتخذها مجالا للسطو، ومباغتة الأعداء،حيث يرتقي مرقبة [1] منيعة يعجز عن بلوغ ذروتها الصياد الماهر الكشح، الذي يخرج عادة مصحوبا بكلابه المدربة،واصفا صعوده - أي الشاعر - وقد شمل دجى الليل جنبات الكون،ممعنا في ترصده وثباته لأجل إلحاق الضرر بأعدائه ،غير مبال بظلمة الليل الحالك،وبرده القارس:

ومرقبة عيطاء يقصر دونها أخو الضروة الرجل الخفيف المشفف

---

[1] - المرقبة تدل على حرص الشاعر الشديد في مراقبة ما يتحرك حوله في دجى الليل العميق ، وتتبعه لكل حركة ،مما يدل على حياتية الزمن الذي يمضيه الشاعر في الترقب والترصد . كما يدل ارتفاعها على شموخ همته وكبريائه. يفرد يوسف خليف " جزئية من بحثه : الشعراء الصعاليك ، تحت عنوان (شعر المراقب) وذلك لكثرة ترددها في أشعارهم ، يقول عنها: أنها أماكن عالية فوق مرتفعات تشرف على سبل المارة ، بحيث يرون الناس ، والناس لا يرونهم.

آنظر : يوسف خليف /الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي . دار المعارف بمصر . ط4. ص 187.

نميت إلى أعلى ذراها وقد دنا من الليل ملتف الحديقة أسدف
فبت على حد الذراع محدبا كما يتطوى الأرقش المتقصف [19]

وفي صورة أخرى من لاميته الشهيرة يصف لنا ليلة من تلك الليالي الباردة،والتي من شدة برودتها يعمد القناص إلى التدفأ بحطب قوسه ونبالها:

وليلة نحس يصطلي القوس ربها وأنبله اللاتي بها يتنبل [20]

محيلا إلى إمعان هذه الليلة في البرودة،الأمر الذي يهون على القناص التضحية بسلاحه تجنبا لسعات بردها الذي ينخر العظام،وهو تصوير بالغ الأثر يشير بفنية عالية إلى قسوة هذه الليلة التي يبيتها الشاعر مترقبا ومتربصا بأعدائه،غير مكترث بعظات البرد التي تخترق مسامات جلده إلى العظام.

أما مثيله" تأبط شرا " فيسرد علينا قصة انفلاته من قيد أعدائه بمعية صديقيه " الشنفرى "

و "عمر بن براق" بحيلة بارعة في ذات ليلة من الليالي،وقد انهكتهم المطاردة بقوله:

نجوت منها نجاتي من بجيلة إذ القيت ليلة خبث الرهط أرواقي
ليلة صاحوا وأغروا بي سراعهم بالعيكتين لدى معدى ابن براق [21]

كما لم ينس أمير الصعاليك " عروة بن الورد" حادثة نجاته كذلك من مكيدة ضبطت له ، و ذلك بفضل جواده السريع" قرمل " في ليلة شيباء:

---

[19] - أبو الفرج الأصفهاني / الأغاني . المجلد 7.الجزء 21.طبعة دار الفكر. ص 140 ـ 141.

[20] - إخلاص فخري عمارة / الشعر الجاهلي بين القبلية والذاتية . مكتبة الآداب . القاهرة . 2001.ص143.

[21] - المفضليات . المفضلية 1. ص 28.

كليلة شيباء التي لست ناسيا وليلتنا إذ من مامن قرمل [22]

وهكذا نجد الليل عند بعض الشعراء الصعاليك فضاء فسيحا لممارسة مغامراتهم الدائمة من أجل الحفاظ على الذات بالإطاحة بخصومهم الذين يطاردونهم باستمرار،أو الحصول على الغنائم إثر الفتك بالأثرياء،والليل في جميع الأحوال يتصف بالسيلان الزمني نتيجة اليقظة والترقب وكذا تحركاتهم السريعة المتمظهرة في العدو،أو امتطاء صهوة حصان يستجيب لأساليب الكر والفر.

بل يغدو الليل أحيانا مسرحا للإيلاج في مغامرات مدهشة ترسمها امتدادات الصحراء ، فتمتثل على مستوى آفاق مخيلة الشاعر معالم لأشباح كائنات خرافية مثل ما زعم " تأبط شرا " عندما ذكرا أن غولا ظهرت له في أعماق ليل الصحراء، يقول في سرد هذه القصة :

وأدهم قد جبت جلبابه كما اجتابت الكاعب الخيعلا

إلى أن حدا الصبح اثناءه ومزق جلبابه الأليـــــــلا

لى شيم نار تنورتها فبت لها مدبرا مقبـــــــلا

فأصبحت والغول لي جارة فيا جارتا أنت ما أهولا [23]

إن حديث الشاعر عن الليل في هذا المقطع لم يكن وصفا عارضا،إنما كان إمعانا شديدا في تقمص الليل،واتخاذه سربالا يتقمصه كما تتقمص الكاعب قميصها المجرد من الكمين.

وقد وفق في انتقاء هذا التشبيه . كما يبدو في المقطع . على مستويين:

---

[22] عروة بن الورد / الديوان ص 20. نقلا عن " يوسف خليف" الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي . ص 228 .

[23] - ابن قتيبة / الشعر والشعراء. ص 198.

- المستوى الأول يحيل إلى سهولة تحرك الشاعر في جنبات الليل كسهولة تقمص الكاعب قميصها .

- وأما المستوى الثاني فقد تجلى في استئناسه لحلكة الليل تماما كما تشعر المرأة بالتستر خلف

قميصها،حيث يصير الليل جلبابا يتستر به الشاعر، ولا يتمزق إلا تحت انبلاج ضوء الفجر، مما يشير إلى أن ليل الشنفرى يختلف عن الليل الذي يأمل الشعراء عادة انكشاف ظلمته، فقد كان ليله ليلا مأنوسا يدخل ضمن أشياء الشاعر المعتادة.

وعليه فإن الليل عند الشعراء الصعاليك لم يكن مصدرا للقلق، بل كان ملاذا للتستر،ومساحة حرة لممارسة وظائفهم اليومية في الترصد ومباغتة الأعداء من جهة،والتحرك في رحاب الفيافي بسهولة ويسر مرتجلين ،أو راكبين من جهة أخرى.

لكن و في جميع الأحوال نلفي الليل عند الشاعر الجاهلي قد تحول إلى فضاء للتنفيس عن مكبوتاته،وصار مجالا خصبا لممارسة هواياته،مستمدا وهجه الوجداني من علاقته الوشيجة بمظاهر البيئة التي عاش في كنفها، مفعما بالأمل حينا، وواقعا تحت تأثير قسوة الخلوة والعزلة والخواء النفسي بسبب الفراغ والخوف حينا آخر .

إن ظاهرة الرحيل وعدم الاستقرار،وما ينتج عنها من فراق وافتقاد للأحبة، مرورا بإمدادات الصحراء المترامية الأطراف، وحلكة لياليها الموحشة كلها مظاهر عملت على تجذ ير إحساس خاص كان يشعر به الشاعر الجاهلي إزاء الليل، فجاءت ترجمته لهذه المشاعر مطبوعة بالتأرق الدائم والنزوع المستمر نحو التشاؤم، والإحساس بافتقاد ما يصبو إليه من آمال ومنى.